القصائد

بقلم الدكتور احمد كمال زكي

*

ماذا يحدث لو اجتمعت كلمة النقاد ــ في آخر الامر ــ على ان ما يقدم اليوم من شعر ليس بشعر ؟

قد يتوقع كثيرون في هذه الحال ان يفسح المجال لشعر الامس لتغطية بعض حاجات اليوم الفنية ، ويبرز من ثم واحد كأبي ذؤيب الهذلي او عروه او طرفة .. غير أن من المؤكد اننا لن نستريح حتى يستطيع واحد من هؤلاء ان يعيش تجربتنا ونحن نركب الصاروخ ونحطم الذرة ونناقش مشكلات الاقتصاد الموجه في ظل الواقعية الاجتماعية .

ان تقدير تلك الحال التعسفية التي يريدها بعض النقاد على ان تتقمص الشعر لا يمكن أن يتم الا بعد البرهنه على أن مأثورنا الشعري كان قويا حتى في حالات انحطاطه، وانه كما يحلو للاستاذ جوزيف نجيم ــ مثلا ــ أن يقرر مبنى او مجرد اوزان .. فمناقشة الموضوع على هذا الاساس شيء طريف حقا ، ولكنه لا يؤدي الا الى حقيقة واحدة هي الرغبة في تحطيم الشاعر الشاب الذي يبحث عن ايقاع لم « يرد » في أبحر الخليل .

ولما كان من المتعذر فعلا ان يبعث مثل أبي ذؤيب من جديد ، فشاعر اليوم اذن سيبقى ، وسيبقى لان هناك حدا لقدرة مهاجميه على الاطاحة به .. فهم ليسوا التاريخ من ناحية وهم لا يستطيعون من ناحية أخرى أن يقفوا دائما في المحكمة ليصرخوا في وجه شاعر اليوم : انت مجرم لانك لم تقف عند حومل والدخول ولم تصف الطلول، لا ولم تقل عنا اننا خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح !

ليس تشبيه الحال بتلك الصورة تشبيها دقيقا ، ولكن هذا بالتقريب هو الموقف الحقيقي للشعر .. فهو يهاجم لانه يتنكب المألوف ، ولانه يلقي في الروع أنه يخرج من وزن الى لا وزن ، ويمكن ان نؤكد أن ما بين أيدينا من قصائد ــ على الاقل ما ورد منها في العدد الماضي من الآداب ــ لا يمكن أن يتعرض لهذا الزعم بسهولة ، لان له مقاييس ربما كان معظمها مما قرره الخليل وغيره من العروضيين .

على أن وعينا بهذه الحقيقة لا يعني مطلقا أننا ازاء عمل كامل ، فثمة ما يتكافل فيه ضعف التكنيك مع سطحية التجربة ، وثمة ما يجب أن نلغي فيه وحدته العضوية لنقول : ما أبعد المسافة بين ارتفاع مضمونه وانحطاط شكله ! وهكذا على نحو يخيل فيه للقارىء ــ والعياذ بالله ــ أننا على ادراك تام بأي انحراف بحيث نستطيع أن نقترح ماذا نفعل اذا كان ما يفعل في حيز الامكان .

هذه المقدمة ليست دفاعا عن شعراء « الآداب » سواء منهم هؤلاء الذين كتبوا في العدد الماضي او الذين سبقوهم حتى لحقتهم لعنة الاستاذ نجيم ، وانما هي تمهيد لان أقول ان شاعر اليوم يشترك مع سائر الفنانين في قدرته على رؤية « الاشياء » بالصورة التي تكشف عن ذاته المثقفة ، ومن حق هذه الذات في هذه الحال أن تختار النمط الفني الذي تريد .

وأول ما يبده ــ بالنظر الى قصائد العدد الماضي ــ أن اصحابها اختاروا الجانب الوعر من الثقافة اذا افترضنا غالبا أن قضية الوطن العربي بالنسبة الينا أشق ثقافات العصر ، ولكن هذا لا يعني أن كل شعراء العدد كانوا موقفيين بهذا التحديد الخاص كما لا يعني أن غيرهم كان هملا .. بل لقد رأيت في « الوميض والرجل » وفي « نشيد الانشاد الجديد » بعد التجربة وعمق الذات المتفتحة على الالم ! ولو اخذنا هاتين القصيدتين بمقاييس الاجتماعيين لقيل صرخات محمومة تجد فيها البرجوازية متاعها التليد ، ولكنها في حقيقة الامر صدى لتمزق انسان القلق .. انسان القرن العشرين الذي يعيش فوق المنطق المعروف ، ويعبر بمنطق آخر يتناسب مع مأساته المعقدة !

ومن الواضح تماما ان كلا من صادق الصائغ وفايز صياغ ــ صاحبي القصيدتين ــ يصدران عن ضياع حقيقي ويرتقبان البشارة من شفاه الريح كما يقول فايز ، ولكن من الواضح ايضا انهما لم يعبرا عن الضياع كما عبر الشاعر القديم عن رضاه المطلق .. بتقريرية محددة الملامح ، وبمباشرة يسهل سبر غورها ، فان من أبعد الاشياء عن شعر اليوم اعتماده على المعطيات القريبة الواضحة .

وقد بلور هذا الاتجاه بعمق ماجد حكواتي في « الصمت والصليب » وانا أعتبر قصيدته بحق ــ لولا انه فيها يغني في شرايين الزمان ما ناء به قلبه الوليد ــ أخصب قصائد العدد ، ونلاحظ فيها كل ما يمكن ان يسدد للقصيدة المعاصرة من طعن بحيث لا نراها تقدم نفسها بسهولة ولا تكشف عن اعماقها ببساطة ، وقد نخرج بعد قراءتها بأكثر مما نواجه به من غموض ، الا انها من غير شك حصيلة مجاهدات لا يمكن التعبير عنها باسلوب يشبه اسلوب العلم التقريري .

وبعبارة اخرى نقول ان شاعر « الصمت والصليب » يرى قضيته كانسان شيئا رهيبا يعتصر كيانه بالالم ويدفعه الى متاهات من الصعب ادراكها بالنظرة العادية ، وانما هي تحتاج الى رؤية فيلسوف متصوف او الى اشراقة وجدان مثقفة، ومحال في هذه الحال ان يتسع لها الاطار التقليدي. فهل يدرك ذلك واحد كالاستاذ جوزيف نجيم

ــ التتمة على الصفحة ٦٥ ــ

قرأت العدد الماضي من الاداب

ـ تتمة المنشور على الصفحة ١٦ ـ

ان الحرية الجديدة في فلسفة تلك المأساة المعقدة هي التي تحيد بالشاعر عن سمت القدماء ، وهي التي تعطي للقصيدة المعاصرة اطارا يبدو كما لو كان لا يرتكز على الماضي البعيد .. ولقد أظهر التغيير في الشكل على ما نرى عند ماجد حكواتي أن ثمة تبدلا في المشاعر ، وأن ثمة ضرورة لتبرز الفكرة بحيث لا تهيىء الفرصة لواحد من الغرب ان يزعم ان شعرنا يختفي فيه المضمون .

فاذا انتقلنا الى شعر القضية طالعتنا أربع قصائد هي « الى أحمد بن بلا » لمحمد جميل شلش و « الشعلة » لصبحي سلامة » و « نزيف النار » لمحمد راضي جعفر و « العودة » لقاسم على الوزير .. اثنتان عن الجزائر واثنتان عن اليمن ، وكلها لا تزال تتعرض لخطابية القصيدة التقليدية ، ولو ان البعث الشعري العربي اقتصر على خلق جماعة من الشعراء الهتافين في أنماط مغايرة لكان نجاحه أشبه باخفاقه ، ولكنه يستهدف خلق الشعراء الذين يغطون بتبريراتهم وتعليلاتهم مساحات التساؤل ، فاذا قال محمد جميل شلش :

فنحن جيل العطاء
جيل الكفاح المر .. جيل الفداء
جيل الملايين التي تحمل عن انسان عصر الفضاء
في كل شبر من بلادي يا رفيق النضال
صخرة سيزيف .....

اذا قال ذلك قلنا : هل لأننا هذا الجيل تميد الجبال وتذهب هباء راسيات المحال ؟ وهل نحن بذلك أكثر مما سمى القدماء أنفسهم ؟ وفيم تصويرنا بسيزيف وبن بلا يحمل عنا عبء الا نكون العبيد ؟ أنا لا أطلب في قصيدة شلش ولا غيره عرضا منمقا لاطراف قضيتنا في أشكالها السياسية والتاريخية والاقتصادية والعقيدية ، وانما أطلب تبرير الفن لموقف الشاعر الحياتي ، فقد أصبح المرء المثقف ثقافة عادية اكثر وعيا بآثار مشكلاته ، فما بالنا بشاعر كمحمد جميل شلش ؟

ان هذا لا يعني مطلقا ان الشاعر أخفق .. بالعكس فقد أحسست بأسر غير مصطنع ، وظهرت قصيدته ولاسيما حين صور فيها احساسه بالقومية ـ على طريقة الكلاسيكيين ـ كما لو أنها كتبت بسهولة فبعدت عن حرفية الاولين ، فهو من هنا أقل عناية بالتجمل الادبي واكثر الحاحا على الوقائع مما فعل صبحي سلامة في «الشعلة» .

وما دمنا وصلنا الى قصيدة صبحي سلامة فقد وجب ان تثار هنا قضية الجودة على أساس الموضوع ، فاتفاق صبحي مع شلش في موضوع بعينه لا يعني ظفرهما بحظ واحد من الاهتمام .. فقد برز شلش في حين تعثر صبحي في اللهيب الذي « يغرق » وجه الدنيا وفي الغار الذي يشب حين يخضل الورد ويضوع في الافق عبير المجد ! ان الصورة عنده باهتة ، وكان حبه لذكر ملامح الوطن البعيد بما يطرأ عليه ـ من الذاكرة طبعا ـ أمرا فوت عليه تعمق أبعاد القضية الجزائرية في طورها الثاني .

اما قصيدتا اليمن فالاولى منهما ـ بحسب ترتيبهما في عدد الآداب ـ افضل برغم اصطناع محمد راضي جعفر اسلوبا قديما حديثا .. فهو حينا يلتزم النظام التقليدي للعروض ويلجأ احيانا الى القافية ذات الروي المحدد، ويبدو ان عدوى الروي اصابت صاحب «العودة» فالتزمه على تفاوت وتنوع .

وهناك ظاهرة في القصيدتين تستحق الاهتمام ، وهي أنهما نظمتا بأجواء منعزلة الا من حيث دلالتها على لون ما من الوان الكفاح .. اما طبيعة هذا الكفاح ونوعه واهدافه ومبرراته ، فلا وجود لشيء من هذا ، وانما يطمس عليه المونولوج الذي لا يجاوز أغلب الآراء الجاهزة والخاصة بصراع الانسان في أي مكان .

ان وصف الحياة الجدبة وتقرير الوحشة والغربة ونزف الجرح .. جرح المعركة او جرح الاشواق ، كل اولئك لا يحدد الا معنى واحدا هو صمود القوة التي لاتني تقاوم الفناء .

قد يقرر محمد راضي انه قائم على المعركة وقد يقرر قاسم الوزير انه يرسم للعودة ، الا أنهما لا يستطيعان ان يقررا استهدافهما تمكين المثل العربي الموحد .. فعندهما يوصف الرعب ويشار الى جمر الاسنة ويندد بقبر الاحياء، ولكن ملامح « اليمن » غائمة بين كل اولئك وهدفه تبعا لذلك مبدد حتى لا يكاد يبين .

كان من الممكن لقاسم بصفة خاصة ان يكون نافذ البصيرة ويبسط لذي يزن مفهوما اعمق وأغزر .

أنا لا أزعم أني أقدم التفسير الدقيق ، ولكني أزعم اني أقف لديهما على شعور انساني قد يكون يقظا متفتحا ولكنه لا يتغنى بانسان اليمن الكبير ، ولا أستطيع فعلا أن أجد هذه المزية في واحدة من القصيدتين .

وبعد .. فانا سعيد ان يتمكن الشاعر المعاصر من أن يتخيل الواقع العربي على هذا النحو البطولي المكافح ، واكثر سعادة ان يحاول استخدام أساطيره ورموزه وحكاياه، ويصف بطش الظلم باله يلعق الصوت والصدى ثم يؤكد أن القوة المأساوية التي تبشر بالموت لم تثبت امام الحياة .

والى هنا أسكت وفي نفسي ان أدعو كلا من قاسم الوزير وفايز صياغ الى ان يهتما بالرقم الموسيقية حتى لا تكون امام العروضيين فرص التقول على تفعيلات الشعر الجديد .

القاهرة — **احمد كمال زكي**